التصوير عند العرب(*)

للمرحوم أحمد تيمور باشا

للدكتور محمد مصطفى

خيل إليّ وأنا أقرأ كتاب « التصوير عند العرب » أنني أجلس في « الخزانة التيمورية » أراقب صاحبها ـ رحمة الله عليه ـ فأراه يقوم إلى أحد الرفوف ويتناول كتاباً معيناً ، من بين الكتب الكثيرة المرصوصة بعناية فائقة ، ليقرأ فيه ويسجل على حواشيه ما يخطر له من آراء وأفكار . وأكاد أرى هذا الكتاب وهو يهتز بين يديه طرباً وسروراً ، بل أكاد أسمع هذا الكتاب وهو يتغنى بمديح صاحبه ويفخر بين الكتب الأخرى بما خط على جوانب صفحاته من ملاحظات ترفع من قيمته في أعين العارفين . نعم ... إن الكتب ترقص وتتغنى إذا هي وجدت من يعني بأمرها ويرعاها في عطف وحنان . ولو تركت « الخزانة

(*) نشره مع التعليقات الدكتور زكي محمد حسن

خُذ علمي وأعطني إيمانك ، أيها الجاهل السعيد ، فلا حياة للعلم بدون إيمان

المنافق الجميل

هو شجرة الخلاف ، أو الصَّفصاف ، وهي شجرة غرسُها بيدي عشرات المرات ، قبل أن أهاجر من سنتريس إلى باريس

لايدوم جمال هذه الشجرة غير سنتين أو ثلاث ، ثم تُخَوَّخ ، والتخويخ في عُرف أهل مصر هو أن تعتلّ الشجرة بعلة الجوف ، فيكون لها ظاهرٌ سليم ، وباطنٌ عليل ، على نحو ما تكون شجرة الصفصاف بعد أعوام قصار ، وعلى نحو ما تكون ضمائر الأصدقاء المزيّفين بعد أيام طوال !

رجال القلم هم أطباء النفوس والقلوب والعقول ، والطبيب بلا مَرضَى كالمحامي بلا قضايا والمدرس بلا تلاميذ

ومن أجل هذا أحبك ، أيها المنافق الجميل ، لأن وجودك فرصة لدرس الغرائز والسرائر والأهواء

أدامَ الله عليك نعمة الغدر ، وأدام عليّ نعمة الوفاء .

زكي مبارك

التيمورية » وشأنها — وما فيها من عشرين ألف مجلد — للأت جو القاهرة وضواحيها بما تتغنى به من أناشيد ، تشيد فيها بذكرى صاحبها الراحل الكريم ، ولكانت تجلب السلوة والعزاء إلى قلوب الكثيرين من سكان هذا القطر والأقطار الشقيقة ، بل إلى قلوب أناس عديدين عصفت بهم الشدائد في تلك النواحي النائية البعيدة ، ولكانت تكف عن هذا الصراخ والعويل الذي ينبعث من « قبر » شاءت الأحوال أن تظل حبيسة فيه ، بعيدة عن عشاقها ومحبيها .

حقاً كان المرحوم أحمد تيمور باشا صاحب « الخزانة التيمورية » ومؤلف كتاب « التصوير عند العرب » من أولئك الذين أسعدهم الدهر بأن يولدوا في وسط عائلي مولع بالأدب وقرض الشعر ، فهو الذي قالت في ولادته أخته عائشة التيمورية من أبيات :

لاح السعود وأسفر التوفيق وتلا لنا سور العلا توفيق

وكان قد سمي عند ولادته « أحمد توفيق » ولكن لقب العائلة غلب عليه . وقامت أخته عائشة على تربيته بعد وفاة والده اسماعيل تيمور باشا ، فتلقى علوم اللغة والمنطق والقراءات على فطاحل أساتذة ذلك العصر أمثال رضوان محمد وحسن الطويل والشنقيطي الكبير ، وظل مثابراً على الدرس ومجالسة العلماء والأخذ عنهم ، حتى أصبح الحجة في اللغة من بعدهم . وكانت داره بدرب سعادة منتدى يؤمه شيوخ الأدب واللغة للبحث والمناقشة أمثال : أحمد مفتاح ، وطاهر الجزائري ، ومحمد عبده ، ويحيى الأفغاني ، وغيرهم كثيرون من علماء وأدباء الشرق والغرب . وفي هذا الوسط شب على حب جمع الكتب والتفنن في اختيارها واقتنائها ، حتى بلغ ما جمعه في خزانته ١٥٫٠٠٠ كتاب في نحو ٢٠٫٠٠٠ مجلد أكثرها من المخطوطات . ويؤكد الأستاذ حسن عبد الوهاب[1] — وقد كان على اتصال به — أن « هذا العدد من الكتب قد اطلع عليه رحمه الله وعلق عليه ملاحظات له ، ما بين وفاة مؤلف أو بيان ذيول وضعت على الكتاب ، أو الإشارة إلى قوة المؤلف والاعتماد عليه في النقل » مما يدل على سعة اطلاعه وحبه للآداب والعلوم والفنون .

وكان رحمه الله دقيقاً في بحوثه العلمية ، متوفر النشاط ،

(١) في ترجمة له التي نشرت في كتاب : تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر للمرحوم أحمد تيمور باشا . ص ٣٠٧ وما بعدها

يكثر من الكتابة والتأليف . وله مقالات كثيرة فى اللغة والأدب والحضارة العربية والتاريخ الإسلامي ، نشرها فى جرائد ومجلات عديدة : كالمؤيد والضياء والمقتطف والمقطم والأهرام والهلال والهندسة والزهراء والهداية الإسلامية . أما ما ألفه من كتب فكثير ، ولم ينشر بعضها بعد ، وإنى أذكر البعض مما نشر منها مثل : تصحيح لسان العرب ، تصحيح القاموس ، نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها ، أبو العلاء المعرى ، تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ، قبر الإمام السيوطى وتحقيق موضعه ، وأخيراً كتابه الفذ التصوير عند العرب

وناشر هذا الكتاب — الدكتور زكى محمد حسن — غنى عن التعريف ، فقد تسنى لى أن أنشر على صفحات هذه المجلة حواراً علمياً بينى وبينه ، قابله بمـا نعهده فيه من ترحاب وسعة صدر ! والمؤلف والناشر يتشابهان فى بعض الصفات كل على طريقته الخاصة وطريقة عصره . فكلاهما من هواة جمع الكتب ، الأول صاحب الخزانة الشهيرة فى الشرق والغرب ، والثانى كوّن لنفسه مكتبة فى الفن الإسلامى يتمنى الكثيرون — ومنهم كاتب هذه السطور — اقتناء مثلها . وكلاهما واسع الاطلاع ، الأول يحفظ بالذاكرة ويدون ملاحظاته فى « كراسات » للرجوع إليها ، والثانى يعتمد فى بحثه العلمى على طريقة « جذاذات الورق » — وإنى أفضل الجمع بين الطريقتين . وكلاهما معتد بنفسه وبمركزه العلمى ، الأول فى تواضع ، والثانى فيما تفرضه مقتضيات عصره من كبرياء لا ذنب له فيها

ولا غرابة إذن أن يقول الناشر فى تصدير الكتاب : « إن المؤلف كان حجة فى اللغة والأدب ، واسع الاطلاع على كتب التاريخ والبلدان ، نافذ البصيرة ، دقيق الملاحظة . فكان طبيعياً أنى لم أجد فى متن الكتاب ما يحتاج إلى تقويم أو تصويب من الناحيتين الأدبية والتاريخية ، ولكن دراسة الفنون والآثار الإسلامية لم تكن ناضجة فى مصر حين كتب فصول هذا الكتاب ولم يكن المؤلف — رحمه الله — إخصائياً وثيق الصلة بالدراسات الفنية فى الغرب ، فدفعنى هـذا كله إلى الإقبال على التعليقات والدراسات الفنية مع توضيح الكتاب بالصور »

والحق يقال إن القارئ لا يدرى هل هو تواضع المؤلف الذى يطلق على هذا الكتاب مع ما تراه من غزارة مادته فى ناحيتى الأدب والتاريخ ، أم كبرياء الناشر وما أظهره من سعة الإطلاع فى تعليقاته ودراساته الفنية . وما الأدب والتاريخ سوى دعامتى الفن الإسلامى ، بهما يثبت قوامه ، وبدونهما تتقوض أركانه

وإنى لا أجد لتوضيح ذلك أقوى ممـا قاله المؤلف فى صلة الشعر بالفن ، فهو يقول فى مقدمة الكتاب : « وقد اعتمدت فى كثير مما ذكرته على الشواهد الشعرية ، لأنى وجدت الشعر أصدق قيلاً وأفصح بياناً فى هذه المواضيع ، فالشاعر إذا وصف فإنما يصف شيئاً موجوداً وقع عليه نظره فرواه لنا كما رآه ، ولأنه يجتهد فى تقريبه للأذهان فيصور من دقائقه فى شعره ما لا تصوره عبارة أخرى ، لا يقصد منها إلا رواية خبر ربما لا يهم راويه إلا ذكر جملته دون تفصيله »

وبدأ المؤلف كتابه بأنواع التصوير فذكر منها ما كان على الجدران والثياب والستور والأقداح والأوانى والمصابيح والأثاث والسلاح والنقود والشارات والبنود ، وفى الكتب والصحف والألواح . ثم أتبعها بذكر التماثيل على أنواعها من ثابتة ومتحركة ومصوتة بأنواع الحيل وتماثيل الحلوى والزهر والحقول واللعب وتماثيل الصبيان ، وأتى بعد ذلك على ما عثر عليه من أسمـاء المصورين . ويقول فى ذلك : « وفى هذا الفصل ما يدحض قول القائلين بقصور العرب فى هذا الفن البديع »

ويقع هذا القسم من الكتاب فى ١١٤ صفحة هى متن الكتاب الذى حرره المؤلف مع الحواشى التى خطرت له . وليست قيمة هذا القسم فى قلة عدد صفحاته أو كثرتها ، بل فيما تحتويه هـذه الصفحات من بيانات ونصوص ، تدل على ما بذله المؤلف من جهود كبيرة ليجمعها من بطون الكثير من الكتب المطبوعة والمخطوطة . وليس أدل على ذلك من قول المؤلف فى مقدمته : ثم لا يخفى على من عانى أمثال هذه المباحث اعتياص هـذا الموضوع ، والتواؤه على محاوله ، لتشتته بين تضاعيف الأسفار بعد ذهاب ما كتب عنه ، وجمع فيه . فلا غرو أن يعد صغيره كبيراً ، ويسيره كثيراً ، وألا يستهان بما يظفر به منه ، فإنه إن لم ينقع غلة ، ويصرح عن المحض ، فلا أقل من أن يتخذ أسًّا يبنى عليه »

وقد تحققت نبوءة المؤلف هذه واتخذ الكتاب أسًّا وبُنى عليـه ، وجاءت تعليقات الناشر ودراساته الفنية متممة لهذا « الصغير الكبير ، واليسير الكثير » فرد النصوص إلى مصادرها ، ووضح الكتاب بالصور ، وعمل على إعداد فهرس هجائى طويل لمتن الكتاب وما كتبه من تعليقات وما رجع إليه من مصادر ،

وإني أشاركه رجاءه في أن يقبل المؤلفون على عمل مثل هذا الفهرس فيما يكتبون وينشرون

ولعل الناشر ظن أن ذكرى مؤلف الكتاب لا تزال حية في قلوب أفراد الجيل الحاضر ، فرأى أن ذلك قد يعفيه من الترجمة له ، على غير المألوف في نشر المخطوطات . وقد كنا نود لو أن الناشر كان قد افتتح هذا السفر الجليل بترجمة وافية لمؤلفه — رحمه الله — يجمع فيها شتات ما قيل وكتب عنه ، لتبقى ذكراه خالدة مع كتابه ، لنا وللأجيال القادمة . وإني أرجو أن يحقق الناشر هذه الرغبة إذا أتيح له أن ينشر من هذا الكتاب طبعة ثانية

وتكلم الناشر في تعليقاته (ص ١١٩ وما بعدها) عن موضوع « حكم التصوير في الإسلام » وأراد أن « يفند الحجج التي يسوقها أصحاب القول بأن التصوير لم يكن مكروها في فجر الإسلام » . فحلل هذه الحجج تحليلاً علمياً ورد عليها . وقد تكون لي عودة لمناقشة هذا الموضوع في مقال آخر

وقد توخى الناشر الدقة التامة في تعليقاته وفي توضيح ما نشره من الصور ؛ وليس أدل على ذلك من صورة لشخص على دعامة وجدت مدفونة تحت قاعة العرش في قصر الجوسق بمدينة سامرا ، وصفها الناشر : (ص ١٤٣ وحاشية ١) بأنها لامرأة « تحمل على كتفيها عجلاً » ؛ ثم قال في الحاشية : إن « أكبر الظن أن هذا الرسم توضيح لقصة فتنة محظية بهرام جور » وبعد أن سرد هذه القصة اختتم الحاشية بقوله : « ويرى القارئ صورة لهذا المشهد العجيب في مخطوط من المنظومات الخمسة للشاعر نظامي ، كتب في تبريز للشاه طهماسب[1] » ؛ وقد بدا للناشر بعد ذلك أن يغير رأيه في شرح هذه الصورة فقال : (ص ٢٥٣ وحاشية ١) إن هذا النقش « قد يمثل سيدة تحمل فوق كتفيها عجلاً ، فيكون ذلك توضيحاً لقصة فتنة محظية بهرام جور » ؛ وبعد أن تكلم باختصار عن هذه القصة قال : « ولكن الحق أننا لا نستطيع أن نجزم تماماً بأن الرسم يمثل سيدة وليس رجلاً ، وبأن الحيوان المحمول عجلاً لا خروفاً ؛ وإذا كان من المحتمل جداً أن يكون المقصود رسم رجل يحمل خروفاً فإن المنظر لا يكون من قصة محظية بهرام جور ، بل يكون منظراً مسيحياً يمثل قصة الراعي الصالح » ؛ وفي الحاشية روى هذه القصة وجاء بمراجع قيمة لبعض صور الراعي الصالح

والحق يقال أنه لا يمكن للقارئ أن يجزم بأي شيء من هذه الصورة وهي في حالتها الراهنة ، والناشر على حق في كلا التفسيرين ، ولكن إذا تأملنا الرسم الذي حاول فيه الأستاذ هرتزفلد (شكل ٦٥ ص ٨٨ من المرجع الذي ذكره الناشر) أن يرجع هذه الصورة إلى أصلها مع مقارنتها بتمثيلاتها على جدران قصر الجوسق بسامرا ، أمكننا أن نتبين أنه لامرأة تحمل على كتفيها عجلاً ، وأن نستبعد قصة الراعي الصالح البيزنطية الأصل ، لما نراه في الصورة من التأثير الساساني الشديد ، ولمشابهة صورة المرأة فيها من حيث الرسم وللملابس لصور الآلهات على تيجان أعمدة قصر الملك خسرو الثاني الساساني . وكذلك لم يذهب الناشر بعيداً في ظنه أن هذه الصورة تمثل الراعي الصالح إذ لا يبعد — كما أثبت الأستاذ هرتزفلد ذلك في ص ٨٩ من المرجع السابق — أن تكون الصورة البيزنطية للراعي الصالح وعلى كتفيه الخروف قد أوحت للفنان الساساني أن يستبدل بالرجل امرأة وبالخروف عجلاً ، فيمثل في صورته هذه « فتنة » محظية بهرام جور ، وهي تحمل العجل على كتفيها ، كي تتفق الصورة مع القصة الساسانية

ولا شك أن مراجع « الفن الإسلامي » التي ضمها الناشر لما ذكره المؤلف من مراجع الأدب والتاريخ ، قد جعلت لهذا الكتاب ميزة خاصة به ، فصار وافياً في الغرض الذي كتب من أجله

أحمد مصطفى
أمين مساعد دار الآثار العربية

(١) وأظن أن الأمر قد اختلط على الناشر في هذه النقطة ، إذ توجد في هذا المخطوط صور أخرى لقصة فتنة مع بهرام جور ليس بينها صورة لهذا « المشهد العجيب » : أنظر ما كتبناه عن هذه القصة في العدد ٤٥٠ من « الرسالة » ص ٢١٤ وما بعدها

الافصـــاح

المعجم العربي الفذ ، وهو خلاصة وافية للمخصص وغيره من المعجمات ، يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ، ويسعفك باللفظ للمعنى المراد ، يعين العلماء على وضع المصطلحات العربية في العلوم المختلفة ، ولا يستغني عنه مترجم ولا أديب ، ٨٠٠ صفحة تقريباً ، طبع دار الكتب ، أشرفت طبعته على النفاد ، ثمنه ٢٥ قرشاً ، يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

حسين يوسف موسى
المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية بالجيزة

عبد الفتاح الصعيدي
رئيس التحرير بمجمع فؤاد الأول للغة العربية